

هو العليم

## الجبر والاختيار

### ومنطق عائشة في تبريرها حرب الجمل

ألقى هذه المحاضرة في مشهد المقدسة

العلامة آية الله السيد محمد الحسين الحسيني الطهراني

قدس الله نفسه الزكية



@MadrastAlwamy





ونحن نرى هذا المنطق سارياً في كلام أبي بكر وعمر ومعاوية وجميع حكام بني أمية وبني مروان وبني العباس طوال مدة حكومتهم بادعاء أن هذه السلطنة وهذه الحكومة وبتبعتها جميع الأعمال التي يقومون بها كلها على أساس التقدير الإلهي وعلى هذا الأساس فهم لا يكتفون بمجرد رفع المسؤولية وإنما يصححون أعمالهم ويستكشفون إمضاءها وصحتها أيضاً.

## مناقشة هذا المنطق

والآن لنا أن نسأل: هل أن منطق عائشة - وبتبعه ذلك المنطق الكلي - صحيح أم لا؟ وبناء على صحته سوف تكون حرب عائشة ضد أمير المؤمنين مقدرة من الله وأحياناً لا يصدر شيء في العالم بدون الإرادة والتقدير الإلهيين فلازم ذلك تصحيح ما يقع من الأفعال! لأنه كان عين التقدير الإلهي وهو فعل صحيح أيضاً ولا يؤخذ عليه.

حسناً يقول ذلك الرجل: إن علي بن أبي طالب هو أقرب الناس إلى رسول الله وأحبهم إليه حتى باعتراف عائشة نفسها إذن لماذا خضت ضده حرباً يا عائشة؟! فتقول عائشة: ألم يتزوج أبوك من أمك؟ فلماذا تزوجا؟ يقول: هكذا تزوجا! حدث شيء فتزوجا وهو تقدير الله.

فتقول: كذلك ما فعلته أنا هو تقدير الله تماماً كما أنك لا تستطيع أن تستشكل على زواج أمك من أبيك كذلك ينبغي أن لا تورّد عليّ شيئاً أيضاً!

ونحن كذلك هناك الكثير من الأفعال التي نقوم بها هي من هذا القبيل أنبرر لأنفسنا ونقول: سيد! ما حدث هو تقدير الله.. كان مشيئة الله.. قد وقع ذلك وحدث.. وحيث أنه فعل الله فعل الله وتقديره أنكون قد أخرجنا أنفسنا من دائرة المؤاخذة والمسؤولية.

إذا كانت جميع الأعمال من الله ففعلنا أيضاً هو من الله ومع كون فعلنا صادراً من الله فلماذا نفصل إرادتنا واختيارنا ونهمشهما؟ فلنقل: إن نفس إرادتنا واختيارنا من الله أيضاً وبناءً عليه فإن جميع ما نواجهه من العواقب المترتبة على هذا الاختيار وهذه الإرادة هي من فعل الله أيضاً وهي كذلك معلولة لعملنا نحن. لماذا نجعل الله مغلوباً ومغلولاً في القضاء والقدر

ونجعل أنفسنا غالبين وحاكمين على الله؟ فنحن جزء من هذه المظاهر الإلهية لعالم الخلقة وقسم من هذه المنظومة الكلية.

صحيح أن كل شيء يندرج تحت قضاء الله وقدره ولكن هل يعقل أن لا يكون لاختيارنا الذي نتمتع به أي تأثير أصلاً؟! والحال أن هذا الاختيار يمثل المؤثر الأكبر.

لو كان ذلك الشخص يقول لعائشة: سيّدة عائشة! ها أنت جالسة أمامي فلماذا سترتي وجهك واحتجبت عني؟ ماذا تقول عائشة؟ سوف تقول: هي إرادة الله.. تقدير الله.. أو تقول: هو تكليفاً حيث أمرني أن أستر وجهي وأحتجب عنك ولكن تغطيتي لوجهي لا تتنافى مع الإرادة الكلية لله.

ولذلك فإن حرب الجمل مع أمّها كانت بإرادة الله وكانت حدثاً حتمياً وقطعيّ الوقوع وقد أنبأ النبي صلى الله عليه وآله عنه إلا أن ذلك لا ينافي كونها صادرة عن إرادة أهل ذلك الزمان واختيارهم وحتى تحديد مصير هذا الشخص وكونه من أهل الجنة أم من أهل النار هو راجع إلى هذه الحيثية (الإرادة) وإنّما تتحقّق إرادة الله ومشيتته من خلال إرادة الإنسان واختياره.

## مثال لتوضيح المسألة

فالآن أنا أرفع "وعاء السكر" هذا بإرادتي أليس كذلك؟! والحال أنّها عين إرادة الله أيضاً الآن أرمي به على الأرض فينكسر فهل أستطيع أن أقول: إنّها إرادة الله!! وأرفع بذلك المسؤولية عن نفسي كي لا أوقع نفسي تحت المؤاخذه؟! لا أبداً.. فهذا الكلام لا يقبله أحد على الإطلاق؛ فالشرع أولاً، وثانياً الوجدان وثالثاً العقل كلّها مجتمعة على أنّك أنت الضامن فقد كسرتها وعليك أن تصلحها ومهما صحت وصرخت بأنّ الذي فعل ذلك هو الله.. فسوف لا يعتني أحد بكلامي وإنّما يحملون هذا الكلام على أنّي مجنوناً يعني هذا الكلام كلام جنونياً يعني هل يعقل أن يقوم شخص في هذه الدنيا بالقيام بجناية ثم يقول: هي إرادة الله؟!

نعم لو وقع هذا العمل بدون واسطة وتسبب ودون إرادة واختياراً كما لو سقط الكوب من على الرف وانكسراً كأن حدثت زلزلة وأسقطت الكوب وكسرتها فلا دخل لاختيارنا بهذا

الفعل كما وأن الله قد رفع عنا حكم الضمان في مثل هذه الحالة ولكن حينما يكون لاختيارنا دور فإن الله قد رتب حكم الضمان علينا كما جاء في قاعدة "من أتلف" القائلة بأن "من أتلف مال غيره فهو له ضامن". وجميع أنواع الضمان إنما تستفاد من هذه القاعدة فهي قاعدة عقلية وشرعية ووجدانية أي هي ليست قاعدة شرعية فقط! وإنما هي قاعدة تجري في جميع المذاهب بل إن قاعدة "من أتلف" جارية حتى عند أصحاب شريعة الغاب فلو مزق أحد - مثلاً - ملابس شخص آخر من قاطني الغابات الوحشية أو أتلف له متاعاً أو أخذ من يده شيئاً عنوةً نجد أنه يلاحقه ويطالبه ويسترجع حقه منه وذلك على أساس قاعدة "من أتلف".

إذن بناء على هذه القاعدة الكلية هل يمكننا أن نخرج أنفسنا بنحو كامل عن دائرة الحكومة الإلهية؟ ونحصر تلك الدائرة الإلهية بخصوص الموارد التي لا تنالها إرادتنا واختيارنا؟! أم لا! وإنما كان كسر الإناء فعل الله الذي تحقق من خلال إرادتنا وعن طريقها وبواسطتها، ونحن جزء العلة أو الجزء الأخير المتمم لعلّة تحقق هذا الفعل؟.

فلكي يتحقق هذا الفعل الذي هو كسر الإناء مثلاً لا بدّ أن تنهياً الآلاف من العلل والعوامل أولاً: ينبغي أن يخلق الله التراب وثنائياً: لا بدّ وأن تجمع تلك المواد من التراب ثالثاً: تؤخذ إلى المصنع وتطبخ، رابعاً: يقومون بإعدادها وفق الشكل الذي يريدون ثم بعد ذلك يعلبونها في الكرتون وبعدها يرسلونها إلى المتجر لتعرض ثم يذهبون لشرائها ويضعونها في مكانها وهنا نحتاج إلى آلاف الآلاف من العوامل المستوجبة لحفظها من القوى الجاذبة والظروف الزمانية والمكانية وسائر الأجزاء والأسباب الدخيلة في تحقق ذلك فكل ذلك مهياً الآن ولكن حفظها يحتاج إلى شرط آخر أيضاً وهو الشرط الأخير وهو أن لا نختر كسرها وإلا فلو اخترنا كسرها فإنها ستزول وتفنى بشكل كامل رغم تحقق تلك الخصوصيات.

إذن رغم وجود تلك السلسلة من الأسباب بكاملها والتي تتشكّل من آلاف الآلاف من العلل فإن جزء علة انكسار هذه الأنية الآن هو إرادتنا والتي تمثل جزء العلة الأقوى والأهم من بين سائر الأجزاء كما تمثل الجزء المتمم لجميع الأجزاء؛ فإن شئنا أن تنكسر انكسرت.. وإن شئنا أن لا تنكسر لم تنكسر.. أو إن شئنا أن نصلي صلينا أو لا فلا نصلي.. نصوم.. أو لا.. فلا

نصوم.. نحجج.. نقتل إنساناً.. أو لا نقتل.. كذلك جميع المعاصي سائر الجرائم كل ذلك يرجع إلى إرادتنا والإرادة هي إرادتنا.

ولو اجتمع كل الناس ليسلبوا الإرادة منا ويأخذوا اختيارنا ويرفعوا المسؤولية عنا.. لا يستطيعون! فنحن قد أردنا ونوينا القيام بالعمل السيئ والقبیح ونحن مسؤولون وينبغي أن نعاقب ونوبخ؛ لأن الإرادة هي إرادتنا.

الآن من أين جاءت هذه الإرادة؟ نحن من أين جئنا؟ وعن أيّ طريق تحققت هذه الإرادة؟ فلا شأن لنا بذلك! وإذا أردنا أن نكثر من الكلام حول ذلك فسوف يُقال لنا: كفوا عن الفضول!! أتعلمون أن ما صنعتموه سيئ أم لا؟ فنقول: نعم! نعلم أنه عمل سيئ إن تحسنا فليس الإحسان بذنب، بل تثابون عليه أيضاً ومن يشرب الخمر ظناً منه أنه ماء فليس بعاصراً ولكن ذاك الذي يشرب الماء على أنه خمر فإنه يستحق التأديب ونفس عقاب العاصي بالفعل فوق الضوابط العامة عقاب التجري هو نفس عقاب العصيان دون أدنى تفاوت.

لذلك فإن العمل السيئ الذي نفعله إنما هو عملنا ونقوم به باختيارنا والجنة والنار قائمة على هذا الأساس {فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ} <sup>١</sup> والشقاء والسعادة على هذا الأساس وإنما بعث الأنبياء لأجل ذلك فدعوتهم واضحةً وجهاد الأنبياء ضد أعدائهم مرتكز على هذا الأساس والدعوة قائمة على هذا الأساس والدين مبني على هذه القاعدة ولولاها لما بقي شيء. وحينما نهّمس اختيارنا وإرادتنا فهو يعني أننا وصلنا إلى مرحلة لا إرادة لنا ولا اختياراً وهو ما يعني أننا لسنا مسؤولين وغير مكلفين {لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا} <sup>٢</sup> {لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا} <sup>٣</sup> وما دام هناك اختيار فهناك جنة وناراً وسعادة وشقاء.

ولو قلتم: إن الجنة والنار هما لله أيضاً! فنقول: حسناً فليكن ذلك ولا اعتراض لنا على ذلك أبداً بل هذا ما نريده نحن أيضاً فلله جنة وناراً ولكن ذاك الذي يدخل الجنة أو يرد جهنم

<sup>١</sup> سورة الشورى (٤٢) ذيل الآية ٧.

<sup>٢</sup> سورة البقرة (٢) صدر الآية ٢٨٦.

<sup>٣</sup> سورة الطلاق (٦٥) مقطع من الآية ٧.

إنّما يدخلها بنفسه وبقدميه وبكامل إرادته والحال أنّ نفسه وقدميه وإرادته والجنّة والنار كلّها ملكٌ لله ولا كلام لنا من هذه الجهة (ولا يمكن الفرار من حكومتك) فهذا كلام تامّ وصحيح إلاّ أنّه لا يرفع المسؤولية عنّا وهذا محلّ كلامنا.

فأنا أرمي الآنية فتقع وتنكسر وأنا أعلم بذلك حينئذ أكون مؤاخذاً ويقال لي: تعال واضمن! ولا يمكنني أن أقول: أنا أرفع هذا الضمان عن عهديّ متذرّعاً بأنّ الذي فعل هو الله بداهة أنّ الذي حكم بالضمان هو الله أيضاً والضامن والمضمون والحكم بالضمان وكلّ شيء هو لله أيضاً.

فما الإشكال إذاً؟ هل من إشكال؟! فهل يجب أن نجعل الله فقط في المواقع الشاذّة، ونضعه في الواجبة ونحمّله مسؤولية عيوبنا، حتى ينال شرف تولّي زمام أمور الملك ويكون هو صاحب القرار في الحكم؟ أم أنّ النظرة التوحيدية والتي إذا فكّرنا من خلالها ودرسنا الأمور على أساسها و حاولنا استشعارها وفق هذا الوجدان تقتضي أن يكون كلّ العالم لله فالحكم بالضمان هو لله أيضاً ونفس إلزامي بوجوب دفع هذا المبلغ لذاك الشخص هو من الله والهال أيضاً من الله ونفس مجيئه ومطالبته بهاله على أساس ما عنده من عقل هو أيضاً لله والعقل الذي أمر بذلك هو من الله والشرع الحاكم بالضمان هو من الله حينئذ فكيف يحقّ لي أن أقول: إنّ كاسر هذا الإناء هو الله وبالتالي فأنا لست ضامناً لأنّ الله هو الذي فعل ذلك؟! كيف..؟! هل هذا صحيح!

فعائشة قادت الجيوش وقامت و قتلت مَنْ قتلَتْ وهتكتْ حرمة مقام زوجة النبيّ صلى الله عليه وآله فعائشة حينما جاءت إلى النبيّ وهو على فراش الموت وأسألته أن يا رسول الله انصحنني وأوصني!! فأجابها رسول الله: **{ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ }**<sup>١</sup>

<sup>١</sup> سورة الأحزاب (٣٣) صدر الآية ٣٣.

## وصية النبي صلى الله عليه وآله لعائشة

وهذا عجيب جداً! فكل نساء النبي أتين إليه يودّعنه ويقبلن يديه وقدميه وكلهنّ طلبن منه النصيحة والنبي بدوره أوصى كلاًّ منهنّ وصية خاصة بها وأما لعائشة فإنه يقول: **{وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ}** أي: اقعدن في بيوتكن! اجلسن في زاوية المنزل! ولا تخرجن من منازلكن! استقررن! وقرن في بيوتكن!! لا تخرجن! هذه هي النصيحة التي نصح بها رسول الله صلى الله عليه وآله عائشة.

وبعد ذلك شرع النبي يبكي بحرقةً وحينما سأله لم تبكي؟ قال: إنما أبكي عليها فهذه زوجتي وهي ناموسي وعرضي!! وسوف تقوم في وجه علي بن أبي طالب مع تلك الأبهة والعظمة وتركب الجمل وتمتطيه كقائدة للجيش!! فزوجة النبي مهمة جداً.. زوجة النبي هي عرض النبي! زوجة النبي هي حريم النبي!! وخروجها أمام الملاء عبارة عن انهدام أصل الدين.. وكأن الكعبة قد هدمت.. وهو يعادل احتراق القرآن.. حيث أن زوجة النبي تخرج للدفاع!! فالمسألة من هذا القبيل أي يبلغ الأمر أن تخرج زوجة النبي وتنهض للدفاع والثورة!! أيها الناس...!

انظروا إلى حجم المكر والخداع وإلى تلك السياسة الشيطانية القويّة كيف استطاعت عائشة أن تخرج معها أولئك الجاهلين الذين بلغ عددهم اثنا عشر ألفاً فلحقوا بركبها؟ وكانوا يقفون تحت أقدام جملها! ويقاتلون ويقتلون أيضاً! مع هذا الجهل والتخبّط!! هل تتصوّرون أن ذلك أمر في غاية البساطة؟! لا.. بل هو خطير جداً..

## تبينا لمنطق عائشة في حياتنا لعملية

هذه هي سياسة عائشة وهذا هو منطق عائشة وهو بعينه موجودٌ فينا جميعاً مع شيء من الزيادة أو النقصان وذلك حينما نريد أن نفرّ من وطأة المسؤولية ونهرب من المؤاخذه حينما نكون مدانين فنخالف حتى يبلغ الأمر مرحلة نصبح عرضة للمساءلة والحساب!! فنقول: هو تقدير الله! هل يمكن الفرار والخلاص من المكر الإلهي؟

## اگر تیغ عالم بجُنبد زجای \*\*\* برّد سری تا نخواهد خدای<sup>۱</sup>

فنحن نطرح الجبر بشكل محكم ونطرح هذا المنطق ونغلب الخصم به ونُسكتة نعم مضمون هذا البيت من الشعر صحيحاً فمهما تحرك السيف وجال في العالم فسوف لن نستطيع أن نقطع رأس أحدٍ إلا أن يشاء الله ويريداً وهذا صحيح ولكن كلامنا عن تحمّل المسؤولية وعلى عاتق من تكون؟

نقول: هل يتحمّل الشمر المسؤولية أم لا؟ فنحن أهل التوحيد نرى أن فعل الشمر هو فعل الله وقطع السيف كذلك هو فعل الله كذلك الإمام الحسين إنّما نراه من الله كلّ شيء.. كذلك تراب كربلاء إنّما نراه من الله فالكلّ لله إلا أنّه من خلال التأمل والتفكير نجد أن هناك أمرين ومسألتين:

إحدهما: وجود الإمام الحسين والذي كان قد اختار هذا الاختياراً فهل هذا الاختيار خارج عن الله؟ وهل اختيار الشمر هو من غير الله؟ وهل صدر فعلهم وتحقق في العالم الخارجي دون إرادتهم؟ أم لا بحيث أن جميع هذه الاختيارات إنّما تحققت وصدرت بواسطتهم ومنهم وحينئذ لنا أن نقول: إنه مستوجبٌ للسعادة ورضوان الله أو للشقاء وجهنم، أو أنّه لا يستوجب ذلك.

فإن قلنا: لا يستوجب ذلك فهو كلام خاطيء وهو أمرٌ مسلم! مسلم عند جميع المدارس وليس الإنسان وحده هو الذي يعتقد بمسؤولية المختار (على اختلاف مدارسه ومذاهبه، وكل إنسان عاقل) بل حتى المتوحّشون يحكمون بكون الإنسان المختار مسؤولاً بل إنّ هذه الغريزة موجودة أيضاً لدى الحيوانات فلو آذى أحد الحيوانات حيواناً آخر دون أي سبب كأن تنقر دجاجة رأس دجاجة أخرى فهي من حيث أنّها مختارة مسؤولة عن هذا الفعل أو قد ورد في رواية أنّها تعاقب يوم القيامة.

وعليه فنحن لا يمكننا أن ننكر الاختيار فبما دام هناك اختيار هناك مثوبة، هناك جنة ونارا وبعد ذلك نأتي ونقتل إنساناً ثم إذا سئلنا: لماذا قتلت إنساناً؟ نقرأ أيضاً هذا الشعر:

<sup>۱</sup> مهما تحرك السيف وجال في هذا العالم فلن يقدر على قطع رأس إلا بالمشيئة والإرادة الإلهية.

اگر تیغ عالم بجُنبد زجای \*\*\* نبرد سری تا نخواهد خدای<sup>۱</sup>

فإن نجب بذلك نكن مغالطين حينئذ!!

ما معنى المغالطة؟ تعني أننا لم نأت بمقدمات برهانية في طرحنا الجواب للطرف الآخر  
وإنما نكون قد استفدنا من بعض المقدمات الشعريّة وسبناها بصورة برهاناً وذاك المسكين  
لا يعرف كيف تمتّ الأمور ولكنّ الله لا يقع في المغالطة أبداً!!

---

<sup>۱</sup> مهها تحرك السيف وجال في هذا العالم فلن يقدر على قطع رأس إلا بالمشيئة والإرادة الإلهية.